المشهد

العدد 336 - السنة الثالثة عشرة -الإثنين 7 أكتوبر 2024 م الموافق 4 ربيع الثاني 1446 هـ

قالت العرب

رأيتك في جبال الشوك راعية بلا أغنام
مطاردة و في الأطلال
وكنتِ حديقتي وأنا غريب الدّار
أدقّ الباب يا قلبي على قلبي
يقوم الباب والشبّاك والإسمنت و الأحجار

(محمود درويش)

الإرث الضائع .. هكذا أثرت مصر فى الموسيقى

الموسيقى وحى يعلو على كل الحكم والفلسفات، وهى خير وسيلة للتعبير عن المشاعر الإنسانية الصادقة، فإذا أردت أن تتعرف على مجتمع، وأن تعرف إلى أى مدى وصل هذا المجتمع من رقى أو انهيار فى المنظومة الأخلاقية، وحدها الفنون تكشف عن ذلك. وقد كانت الحضارة المصرية ملهمة للعديد من المؤلفين الموسيقيين العالميين، وتم تأليف أكثر من خمسين عملا موسيقيا مستوحاة أو مقتبسة من أسرار وأساطير وقصص من الحضارة المصرية القديمة، ومن أشهر الأعمال الموسيقية «أوبرا عايدة» للموسيقار الإيطالى جيوسيبى فيردى والتى يتناول فيها عظمة الحضارة المصرية وشجاعة المصريين القدماء.

كبار مؤلفى الموسيقى العالمين يستوحون أسرارا وأساطير وقصصا من الحضارة المصرية القديمة

الباحث

فى تاريخ الموسيقى نور الدين التميمى يسلط فى كتابه «الإرث الضائع كيف أثرت مصر فى الموسيقى العالمية» الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة، الضوء على أربعين عملا من الأعمال الموسيقية العالمية على مدى القرنين الماضيين التى اتخذت من أساطير وقصص الحضارة المصرية موضوعا لها فى مجال الموسيقى والغناء والأوبرا، تكشف عن كنز مفقود من الأعمال الموسيقية العالمية التى لا يعيرها أحد اهتمامه فى مصر رغم أن هذه الأعمال مرتبطة بشكل كبير بالحضارة المصرية. وقد أكدت د.ذويا ميكوفا أستاذة تاريخ الموسيقى بأكاديمية الموسيقى والفنون الجميلة بجامعة بلوفديف . بلغاريا، فى مقدمتها للكتاب أن الأعمال الموسيقية التى يضمها الكتاب ليست إرثا للمصريين فقط بل لشعوب العالم أجمع، فهذا الكتاب وسيلة جيدة من وسائل التواصل الحضارى بين الشرق والغرب، فقد كتبت هذه الأعمال الموسيقية فى عصور يسود فيها التسامح والتآخى وقبول الآخر، سوف ترى فى هذا الكتاب مدى انبهار كبار الموسيقيين الأوروبيين بالحضارة المصرية من خلال ما كتبوا من أعمال موسيقية كلاسيكية تتسم بالإبداع الصادق.

وأضافت «سوف تعيش مع جول ماسينى معاناة الراهب أثانايل وتاهيس فتاة الإسكندرية، وتسمع هدير أمواج نهر النيل مع كاميلى سان صا، وتلتزم الصمت عندما يعزف سيريل سكوت المارش الجنائزى للملك المحارب رمسيس الثاني، سوف تتعرف أكثر على الحضارة المصرية وما قدمته إلى البشرية من علوم وفنون وأساطير كانت مصدرا لإلهام شعوب الأرض، فكانت هذه الأعمال الموسيقية فى العصر الحديث التى يتناولها الكاتب بالتفصيل والتحليل موسيقيا وتاريخيا، كانت عرفانا لما قدمه المصريون القدماء لحضارات العالم، فالموسيقى خير وسيلة للشكر وللتعبير عن مكنون النفس، وكما قال الفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه «الحياة بلا موسيقى خطأ فادح».

من الأعمال التى حللها التميمى تاريخيا وموسيقيا «أوبرا عايدة»، «أوبرا الناى السحري»، «أوبرا تحتمس الثالث ملك فى مصر»، «أوبرا موسى فى مصر»، باليه ليالى مصرية (آرنسكي)، «ليالى مصرية» (بروكفييف)، شهرزاد، «باليه ألف ليلة وليلة»، «أوبرا يوليوس قيصر فى مصر»، «الكونشيرتو المصري»، «باليه ابنة الفرعون»، أوبرا موسى فى سيناء»، «أوبرا كليوباترا»، «أوبرا تاهيس»، «أوبرا إخناتون»، أوبرا موسى وهارون»، «كانوبي»، «أوبريت محكمة الفرعون»، «أوبرا يوسف فى مصر»، «أوبرا الحملة الصليبية فى مصر»، «أوبرا خروج بنى إسرائيل من مصر»، «فى أرض مصر الغامضة»، «باليه طقوس الربيع»، «أوبرا تاهيس»، «أوبرا بطليموس ملك مصر».. وغيرها.

أوبرا عايدة

يقول التميمي فى سياق تحليله التفصيلى لأوبرا عايدة "عندما عرض كامى دى لوكل على صديقه الموسيقار جيوسيبى فيردى قصة "عايدة" التى كتبها عالم المصريات الفرنسى أوجست ماريت، تحمس فيردى ووجد فى موضوعها الفرعونى لونا لم يقدمه من قبل، كما لمس بخبرته الفنية الإمكانيات المسرحية والموسيقية بها، ولهذا وافق على تكليف الخديوى إسماعيل بتأليف أوبرا على هذه القصة؛ لكى تقدم فى افتتاح دار الأوبرا المصرية، ولكن حالت الظروف دون ذلك وقدمت أوبرا "ريجوليتو" فى الافتتاح بدلا منها وبعد عدة أشهر قدمت عايدة لأول مرة على المسرح نفسه فى ٢٤ ديسمبر عام ١٨٧١ ليحقق العرض نجاحا هائلا ويحدث ضجة إعلامية كبيرة ويتحقق ظن فيردى فتصبح أوبرا "عايدة" من أكثر الأوبرات العالمية شهرة وإبهارا حتى وقتنا الحالي، استوحى "ماريت" قصة أوبرا عايدة من بعض ظواهر الحياة والعادات المصرية القديمة التى ظهرت فى نقوش المعابد؛ مثل طقوس الكهنة ومواكب النصر وعادة "دفن الأحياء" التى عوقب بها راداميس بطل أوبرا عايدة فى نهاية الأوبرا. وقد نسج حولها قصة عاطفية ربطها بالحرب التاريخية بين مصر وبلاد الحبشة، قام بكتابة النص الغنائى لها "أنطونيو جيسلانزوني".

ويضيف "جاءت أوبرا عايدة لتمثل مرحلة فنية جديدة وصل فيها أسلوب فيردى إلى قمة النضج؛ حيث يهتم فيها اهتماما بالغا بالدراما، وحاول تجنب الأسلوب الإيطالى الذى يقسم الأوبرا إلى فقرات منفصلة تستعرض مهارات آداء المغنين على حساب تسلسل الدراما، كما تأثر فيها بأسلوب معاصره الألمانى ريتشارد فاجنر فى ربط الشخصيات الرئيسية للأوبرا (مثل عايدة، أمنيريس.. الكهنة) بألحان تؤديها الأوركسترا (ألحان دالة) عند ظهور الشخصية على المسرح.

أوبرا الناى السحري

وحول أوبرا الناى السحرى (الأمير المصرى ومحبوبته باميا) لـ "فولفجانج أماديس موتسارت" يشير التميمى "تستند قصة الأوبرا لأحداث خيالية بعضها من التراث المصرى القديم والآلهة المصرية إيزيس وأوزوريس آلهة الخير والشر، والصراع الدائم بين الخير والشر، وبطل الأوبرا وهو الأمير المصرى الشهم والوسيم "تامينو" والأحداث فى قالب خيالى ممزوج بالمرح والموسيقى الساحرة التى تخلق حالة من المرح والغموض فى بعض الأحيان كعادة موتسارت. ويصف أحد الكتاب أوبرا الناى السحرى بأنها أشبه بحكاية من حكايات الجن فى ألف ليلة وليلة فائقة فى الرقة والعذوبة والجمال، تتأرجح بك أنغامها وألحان أغانيها وكلماتها بين مملكتى النعيم والجحيم بصورها الزاهية وألوانها المتألقة، وبتناقضها الإنسانى الواقف على مفترق نجدين: وإما السعى الدؤوب وصولا إلى ما يقره الحظ من قناعة بسعادة دنيوية، وإما النفاذ بالبصيرة إلى عالم الحكمة السامية والحقيقة المثالية المطلقة.

ويرى أن موتسارت فى أوبرا الناى السحرى يلعب لعبة البساطة والعمق، والفرح والحزن وسائر التناقضات بموسيقاه المهذبة والمصقولة كالألماس، فهو مثلا يجسم فى شخصية باباجينو صياد الطيور وبائعها المرح الإنسانى الفطرى وخفة الدم، وقد كتب عليه هذا أن يمر بتجارب قاسية برفقة تامينو الأمير المصرى لتحرير باميا من أسر مملكة الليل، وباباجينو هذا ظل يسعى بخفة دمه إلى متع الحياة البريئة من طعام وشراب مقايضة بطيوره، ولكن بنية بذيئة مع النسوة اللواتى كن يتحرشن به، وما أكثرهن يعترضن سبيله ويمازحنه على طيوره الجميلة التى يحملها فى قفص على كتفه ويرقص بها وينفخ فى صفارات من قصب الغاب مترنما فى الساحات والأزقة وتحت الشبابيك ويغنى بصوته الجهير أغانيه الرائعة المرحة.

أوبرا موسى فى مصر

ويوضح التميمى أن أوبرا موسى فى مصر (النبى موسى وفرعون مصر) تدور أحداثها بشكل عام حول خروج النبى موسى وقومه بنى إسرائيل من مصر لهم وملاحقته لهم حتى البحر الأحمر، وتحدث المعجزة المتفق عليها فى كافة الكتب السماوية؛ حيث ينشق البحر ويمر بأمان النبى موسى وقومه ويغرق الفرعون ويقول وهو يجود بأنفاسه الأخيرة؛ الآن قد آمنت بنبوة موسى.

يتابع "تبدأ الأوبرا بموسيقى هادئة وبألحان روسينى الساحرة، ثم تتلاحق الأحداث ويتغير رتم الألحان؛ لكى يناسب الأحداث التى تدور حول ملاحقة الفرعون لموسى وقصة حب بين ابن الفرعون "أمينوفيس" والفتاة اليهودية "آناي" التى تخطط لمنع مخطط الفرعون والكهنة والفرار من بطشهم. يفاجأ المشاهد بالمسرح مظلما تماما فى البداية وألحان روسينى التى تتسم بالغموض أحيانا، والأوبرا مكونة من أربعة فصول وفى الفصل الأخير تتحول خشبة المسرح لشاطئ البحر الأحمر؛ حيث يفر موسى وقومه ويغرق الفرعون وجيشه.

باليه ليالى مصرية

ويلفت التميمى إلى أن الموسيقار الروسى أنطوان آرنسكى ترك أعمالا موسيقية خالدة منها أوبرا "حلم على نهر الفولجا" وأوبرا "رافييل ١٨٩٤، وأوبرا "نال ودميانتي" ١٩٠٣، وأن له عمل واحد فى الباليه وهو باليه ليالى مصرية (كليوباترا ومارك أنطونيو) ١٩٠٠، وله العديد من المؤلفات على البيانو ومؤلفات لموسيقى الحجرة.

ويقول: "باليه ليالى مصرية مكون من ثلاثة عشر مشهدا وتدور الأحداث بشكل عام حول كليوباترا ملكة مصر وحياة المصريين القدماء التى كانت مليئة بالعادات الغامضة، والباليه مليء بالرقصات كرقصة الفتيات المصريات فى المشهد السابع، ورقصة الفتيات اليهوديات فى المشهد السادس، ورقصة العبيد فى المشهد الثالث، وينتهى بمشهد دخول مارك أنطونيو بمصاحبة موسيقى آرنسكى الرائعة".

أوبرا العيد والحب والآلهة المصرية

ويذكر التميمى فى تفاصيل تحليله لأوبرا العيد والحب والآلهة المصرية (أعياد مصر القديمة وأساطيرها) للموسيقار جون فيليب ريمو ، يتخللها رقصات باليه من ثلاثة فصول، قدمت لأول مرة فى الخامس عشر من شهر مارس عام ١٧٤٧ فى فرساى، النص الدرامى من تأليف لويس دى كاوزاك، قدم العرض بمناسبة الاحتفال بزواج وريث عرش فرنسا بماريا جوزيف أميرة ساكسونيا، فى عام ١٧٧٦م أى بعد وفاة جون ريمو، قُدم العرض للعامة وحاز على إعجاب الجمهور وقُدم أكثر من مائة مرة فى باريس ومدن فرنسية أخرى، الأوبرا مستندة إلى الأساطير المصرية، أوبرا العيد والحب والآلهة تتضمن سبع رقصات، يتم المزج بين الكوميديا والرقص والدراما بحرفية وإتقان، فنستطيع القول "إن جون فيليب ريمو قد نجح فى رسم اللوحة المصرية من خلال الموسيقى والأحداث والملابس.

ويوضح أن الفصل الأول من هذه الأوبرا يستند إلى قصة أوزوريس ورقصات الشر والمؤامرات، والفصل الثانى عن الجرار الكانوبية التى كان يحفظ بها الأحشاء أثناء عملية تحنيط الجثث وقدم هذا الموضوع مرتين فى تاريخ الموسيقى الكلاسيكية الفرنسية مرة من خلال ريمو، والمرة الأخرى من خلال معزوفة على البيانو لدبيوسي، والفصل الثالث عن إيزيس، وينتهى العرض برقصة خادمات إيزيس نهاية سعيدة.

تقرير - محمد الحمامصي

مشهد من مشاهد أوبرا بطليموس ملك مصر

باليه ليالى مصرية

أوبرا تاهيس

افتتاحية الرحلة إلى مصر

«إيان بيترسون» فى دور أموناسرو و«كلير روتر» فى دور عايدة- لندن

نموذج للدعاية لشهر زاد لأوركسترا لندن السيمفونى

أوبرا عايدة

فى أرض مصر الغامضة

«أندريا سونتشيتى» فى دور موسى

لقاء تامينو وباميا

أوبرا يوليوس قيصر فى مصر

«بول فلايت» فى دور إخناتون

باليه ألف ليلة وليلة

أوبرا الحملة الصليبية فى مصر

باليه طقوس الربيع أو «قرابين الربيع» للمؤلف إيجور سترافيسكى

أوبرا الناى السحرى

ما بين كلب المتنبي وحصان امرؤ القيس

حين ذهب المتنبى إلى لبنان ليمدح الكاتب على بن هارون بن عبدالعزيز الأوراجى فى سنة (ثلاثمائة وسبعة وعشرون من الهجرة)، ضن عليه على بما يريد، فأقام المتنبى عنده مدة يستجم من مشقة السفر ويروح عن نفسه بالاصطياد وطراد الفرائس، وذات يوم طلب منه الأوراجى أن يصف له كلب ابن مالك الذى استطاع وحده دون معونة من صقر أن يصطاد ظبيًا، فقال المتنبى ارتجالًا أرجوزته و«منزل لنا ليس بمنزل»، ويلاحظ فى تلك القصيدة أن هناك تشابه بين هذه القصيدة ومعلقة الشاعر امرؤ القيس، تشابه وليس معارضة، فقارئ هذه القصيدة سيرى أن المعلقة كانت فى ذهن صاحبنا وهو يرتجل قصيدته تلك، سواء فى القافية وتشابها أو فى بعض التشبيهات والصور البلاغية، ما يوحى بلفتة جميلة وهى كيف أن المتنبى جعل من كلبه ندًا لحصان امرؤ القيس، لفتة تتماشى مع شخصية المتنبى الذى عرف باعتزازه بذاته، لا يمدح الملوك فقط وإنما يمدح ذاته فى حضرتهم يعاتبهم معاتبة الند للند، صورة لشاعر وأديب لم تعرف مثله الثقافة العربية من قبل أو بعد.

ويأتى التشابه فى القصيدتين أولًا من ناحية القافية. والثانى فى أخذ المتنبى من صفات حصان امرؤ القيس وإعطائها إلى كلبه.

ومن الأمثلة على الجانب الأول المتعلق بتشابه كلمات القافية. يبدأ المتنبى أرجوزته بقوله «وَمَنزِل لَيسَ لَنا بِمَنزِل»، وهو ما يحلينا مَعَ اختلاف بَحرَ اَلقصدتين بين الرجز المعروف باسم «حمار الشعراء» وبين بحر الطويل فى مطلع معلقة امرؤ القيس «قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ»، فحرف اَلروى واحد هُىَ القصيدَتين، ويعطى مطلع المتنبى معنى الاغتراب والوحدة وتحول المكان إلى أطلال وهو الحال ذاته الذى يصفه امرؤ القيس.

يواصل المتنبى تناصه مع معلقة أمرو القيس على مستوى القافية، فتتوحد مع المعلقة فى كلمات مثل الشمأل، وبِيذبل، والقرنفل، فيقول المتنبى «كَأنَّها من سُرعَة فى الشَمأل، كَأنَّها من ثِقَّل فى يَذَبُل» وهى تتَساوق مع ما جاء فى أبيات المعلقة فى «لَما نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ»، وفى بيت «فيا لَكَ من لَيلٍ كَأنَّ نجُومهُ× بكل مُغار الفَتلِ شُدّتْ بِيَذْبُلِ»، وفى «القرنفل» يقول المتنبى «نَدىَ الخزامى ذَفِر القَرَنفُل، مُحَلَّل ملوَحش لَم يُحَلَل»، وَتأتى هذه القافيَة أيضًا عند امرؤ القيس هو يصف حبيبته «إِذَا التَفَتَتْ نَحْوِيَ تَضَوَّعَ رِيْحُهَا، نَسِيْمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ».

وفيما يتعلق بالجانب الثانى من التشابه المضمونى نلاحظ أن المتنبى وصف كلبه بأنه «لَهُ إذا أدبَرَ لحظ المقبل، كَأنَّما يَنظُرُ من سَجَنجَل، يعدوَ إذا أحزَنَ عَدوَ المسهل، إذَا تَلا جاءَ المَدى وَقَد تُلي» فنحنَ أمَام كلب شديد السرعة يرى من الأمام كما يرى من الخلف كأنه يملك مرآة تجعله يرى ما يحدث خلفه وليس الأمام فقط (تشبيه لطيف كأنه يتحدث عما هو موجود فى المرآة الموجودة فى السيارات حاليًا التى تتيح للسائق رؤية الخلف)، وهذا الكلب يجرى فى الأرض الصعبة غير المستوية كأنه يجرى فى سهل مستوى يتساوى لديه الحزن والسهل، قادر من فرط سرعته أن يسبق المدى، وكأن المتنبى يحدثنا هنا عن حصان امرؤ القيس مكرّ مفرّ مقبل مدبر معًا.كجُلمود صَخرٍ حَطّه السَيلُ مِنْ عل» الذى يتحدثُ عن فرس شديد السرعة فى الكر والفر فى آن، وفى سرعته مثل جلمود صخر حطه السيل من قمة الجبل، شبه حصانه فى السرعة بالجلمود حطّه السيل من أعلى الجبل، فهو فى هذه الحالة شديد السرعة فكيف الحال إذا أعانت هذا النزول قوة كقوة السيل.

وإذا كان امرؤ القيس وصف حصانه بأنه من الصخر، فالمتنبى لا يغيب عنه هذا المعنى أيضًا فيقول «كَأنَّهُ مُضَبَّرٌ من جَرَوَل/ مُوَثَّقٌ عَلى رماح ذُبَّل» أىَ كأن كلبَه منحوت من الصَخْر، ثابت موثق على قوائم طوال مثل الرماح الذبل أى الرماح اللينة، وهنا يجمع المتنبى بين القوة والليونة القوة فى الصخر ، والليونة فى رماح الذبل.

ومن المعانى التى يأخذها المتنبى ويغير من دلالاتها بما يتناسب مع فكرة قصيدته المعنى الذى يأتى فى قولهِ «ذى ذَنَبٍ أجرَدَ غَيرَ أعزَل/ يَخُطّ فى الأَرضِ حِسابَ الجُمَلِ» يقول أن كلبه له ذيل قليل الشعر ليكون خفيف الحركة، وغير أعزل والعزل هو ميل الذنب وهو عيب غير موجود فى هذا الكلب، وهذا الذيل طويل يخط فى الأرض دفعة بعد أخرى فيمحو الثانى ما يخط الأول، كما يفعل الحسّاب هم يكتبون على الألواح الخشبية يكتبون ويمسحون ما كتبوه. ذلك المعنى موجود أيضًا فى معلقة امرؤ القيس عندما ذهب إلى حبيته وقد نضت لنوم ثيابها «فَقالَتْ يَمِينَ اللهِ ما لَكَ حيلَةٌ/ وَما إنْ أرَى عَنْكَ العَمايَةَ تَنْجَلي/ خَرَجْتُ بِها تَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا/ عَلَى أثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ» خرج بتلك الحبيبة من الحَى فكانَ ذيل فستانها الطويل يمحو آثار أقدامهم فتخفى آثار خطواتهم على الرمل .

وإذا كان امرؤ القيس وصف حصانه بأنه مكر مفر مقبل مدبر فى إيقاع سريع، فلا يغيب ذلك الإيقاع السريع عن قصيدة المتنبى وهو يصف كلبه بأنه «أقب ساط شرس شمردل» والأقب هو ضامر البطن، والساطى البعيد بين الرجلين إذا مشى، والشرس أى سيء الخلق، والشمردل هو الطويل وقيل خفيف الحركة.

فحل كلابى وثاق الأحبل/ عن أشدق مسوجر، مسلسل، أقب ساط شرس شمردل» والكلاب صاحب الحلب، والوثاق الحبل، والأشدق واسع الشدقين هما شق الفم عن يمين وشمال، ومسوجر أى أن فى عنقه ساجور.

ومن المعانى التى يأخذها المتنبى من امرؤ القيس هو يصف علاقته مع فاطمة فيقول لها معاتبًا «أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هذا التَّدَلُّل /وَإنْ كُنْتِ قَدْ أزْمَعْتِ صَرْمِيْ فَأَجْمِلِي/ وَإنْ كنت قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّيْ خَلِيْقَةٌ/ فَسُلِّيْ ثِيَابِيْ مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسُلِ/ أغَرَّكِ مِنِّيْ أنَّ حُبَّكِ قَاتِلِي/ وَأنَّكِ مَهْمَا تَأْمُرِي القَلْبَ يَفْعَلِ»

صَفة التملك تلك والتجبر على المحبوب نجدها فى كلب المتنبى «مقتحمًا على المكان الأهول، يخال طول البحر عرض الجدول، حتى إذا قيل له نلت افعلي» ويا لها من مفارقة بين فعل فاطمة وفعل كلب المتنبى «حتى إذا قيل له نلت افعلي» و «تأمرى القلب يفعل» فكلاهما له السطوة على المحب وفى عبارة أخرى الفريسة.

د. عبدالكريم الحجراوي